عالم الغيب والشهادة

عبد المجيد بن محمد الغيلي

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

موقع رحى الحرف

عالم الغيب والشهادة

عبد المجيد بن محمد الغيلي

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

موقع رحى الحرف

(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

عالم الغيب والشهادة، عبد المجيد بن محمد الغيلي، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، منشور على موقع المؤلف: رحى الحرف، ص ...

الفهرس:

مقدمة:

هذا الجزء الثاني من دراسة (الغيب والشهادة في القرآن الكريم)، وقد خصصته لدراسة عالم الغيب والشهادة. وبينت فيه حقيقة الغيب ومفهومه كما يبينه القرآن الكريم، وأن القرآن يسمي القدَر: الغيبَ، ولم يرد فيه لفظ الإيمان بالقدر، بل: (يؤمنون بالغيب).

ثم بينت فيه أقسام عالَم الغيب، وانتقدت التقسيم السائد: (غيب مطلق، وغيب نسبي)، وبينت أن الغيب ثلاثة أقسام: أخبار الغيب، وأنباء الغيب، وغيب محجوب بالنور. ثم درست عالم الشهادة، وبينت أنه ثلاثة أقسام: عالم الشهادة غير المدرَك، وعالم الشهادة الذي يمكن إدراكه، وعالم الشهادة المدرَك.

ثم درست إسناد الغيب إلى الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، ونفيه نفيا تاما عن البشر. وتناولت مفهوم قوله (وما هو على الغيب بضنين).

وأخيراً درست مفهوم (المشهود)، ودلالة آية الإسراء، وما الذي يعنيه أن قرآن الفجر كان مشهودا، والتحقيق في الصلاة الوسطى.

اللهم عالِمَ الغيب والشهادة، أنت الظاهر والباطن، وأنت على كل شيء شهيد، اجعلنا ممن يخشونك بالغيب.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

الرياض

رمضان – ١٤٣٥هـ / يوليو ٢٠١٤م

abdmmys81@hotmail.com

(١) حقيقة (الغيب) في القرآن الكريم:

الغيب في القرآن الكريم، كما بينته في الجزء الأول، هو: (شيء موجود، ولكنه مستور بحجب من الظلمات أو النور).

فعالَم الغيب عالَم موجود، فهو عالم قد خلقه الله، وقد أوجده. ولكنه يظل محجوباً، فهو خفي ومستتر؛ بسبب الحجب التي حُجب بها. وفي بحثي عن الظلمات والنور، بينت أن ثمة ثلاث ظلمات، ظلمة الخلق، وظلمة الدنيا، وظلمة القيامة، ثم بعد ذلك نور الجنة، فالله يخرج الخلق من الظلمات إلى النور، يخرجهم من ظلمة بعد أخرى حتى يدخلهم النور الذي لا ظلمة فيه.

تأمل قوله: (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى)، **فقوله (فهو يرى)، أي: يرى شيئا موجودا، ولكنه مستتر. فالله يقول عن هذا الذي تولى: أعنده علم الغيب فهو يرى، فمن كان عنده علم الغيب فإنه يرى الغيب، ولا يرى إلا شيئا موجودا. وكذلك قوله: (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)، فالاطلاع يكون على شيء موجود.**

وتأمل قوله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ). **فقوله (عالم الغيب لا يعزب عنه..)، فكل شيء غيبٍ هو في كتاب مبين، وهو لا يغيب عن عالم الغيب والشهادة.**

(أ) الغيب هو القدر:

لم يرد في القرآن الكريم (يؤمنون بالقدر)، أو (الإيمان بالقدر)، ولكن ورد: الإيمان بالغيب، قال تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ). **فالغيب هو ما ظهر واستتر، وما لم يظهر بعد، وما حجبه النور.**

وهو المراد بالقدَر في الحديث الذي أخرجه مسلم: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدَر خيره وشره)، أي: تؤمن بالغيب، الذي قدره الله قبل خلق السماوات والأرض حتى دخول المؤمنين الجنة، ودخول الكافرين النار.

فالقرآن الكريم يعبر عن (القدَر) بلفظ (الغيب)، ويصف المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيب. ومنه قوله تعالى: (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ).

ويبين أن الغيب منه خير وشر، كما قال:

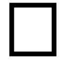
(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ)،

وقال: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً).

وقال: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا).

وقال: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)، **فسمى الخير: إنعاماً.**

وفي هذا المدخل بيان لهذه القضية.



(ب) "الغيب" موجود مستتر:

الذي يستبين لي من دراسة آيات الغيب وغيرها من آيات القدر، والأحاديث الواردة فيه (وسأدرس ذلك دراسة مستفيضة في القدر) أن الله خلق كل شيء، وجعله في ظلمة، وقدر له أجلا يُجَلّيه فيه، وحين يأتي أجله يُجَلّيه اللهُ بنوره، فيخرجه من تلك الظلمة بقدَر إلى النور (التدبيري)، فيهتدي لما خُلِق له بنور ربه، وحين ينقضي أجله يذهب عنه ذلك النور، فيدخل في الظلمة الثالثة.

(ب -1) مثلان من حياتنا:

وسأقرب هذا بمثلين، ولله المثل الأعلى،

المثل الأول: آلة التصوير (الكاميرا)، يقوم المصور فيها بالتقاط ما شاء من الصور، وهذه الصور تظل مخزنة في (فيلم التصوير) [فهي في (ظلمة) الآلة، داخل صندوق الآلة]، وحين يقوم المصور بتعريض جزء من الفيلم للضوء (ويسمى: التظهير)، فإن الصورة تخرج من الظلمة فتظهر، وظهور الصورة يختلف بحسب عدة عوامل، منها: كثافة الضوء.

والمثل الثاني: آلة التصوير (الفيديو)، حين يتم تسجيل الْمَشاهد عليه، ثم يقوم بعرضها لأول مرة على المشاهدين، فإن الْمَشاهد والأحداث قد وجدت من قبل، ولكن الجديد هو عرضها على الناس، ولذلك لو كنا الآن في الدقيقة ٣٠ من (الفيلم)، فإن الدقيقة ٤٠ تعد مستقبلا بالنسبة إلى المشاهِدين، ولكنها حدث قد تم بالنسبة إلى المصور أو المخرج.

هذان مثلان في حياة الناس. فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق فسواهم وصورهم، وخلقهم خلقا تاما، وحتى أعمالهم كلها قد تمت. وجعلهم في ظلمة، وحين يأتي وقت كل مخلوق منها يجليه بنوره، (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ). فمثلاً الإنسان الأول (آدم)، جلاه الله لوقته، وحين جاء وقت نوح جلاه ربنا لوقته، وهكذا حتى أنت جلاك الله لوقتك. كما أن الإنسان (الفرد) هو مخلوق في مختلف حالاته، منذ أن يكون جنينا في بطن أمه حتى يصبح في قبره، وفي كل وقت يجلي الله منه شيئا. فما من حركة يعملها، ولا شيء يقوم به إلا وقد تم، ولكن الله يجليه لوقته. وتتزامن هذه التجلية في كل وقت مع ملايين ملايين المخلوقات الأخرى، التي لا يعلمها إلا الله.

ويمكننا تخيل ذلك، لو لم ندرك الزمن كتيار متدفق، بل ندركه كلقطات متتابعة، ولا يمكننا معرفة الوحدة الزمنية بين كل لقطة وأخرى [وأصغر وحدة زمنية توصل إليها الإنسان هي الفيمتو ثانية، وهي جزء من مليون مليار جزء من الثانية]، ومن ثم فتتابع تلك اللقطات يجعلنا ندركها كتيار متدفق. [وهذا لتقريب الإدراك، ولا يعني أن الأمر كذلك]. و"كاميرا التصوير الفوتوغرافي" تستطيع تصوير سرعات عالية جدا (تبعا لسرعة الغالق فيها، وهو مدى قِصَر الوحدة الزمنية فيها)، فتبدو الحركة كما لو كانت جامدة. فمثلاً، عند تصوير ماء متدفق، تجمد "الكاميرا" تدفقه، فتبدو الصورة كما لو أن ذلك التدفق عبارة عن لقطات متتابعة سريعة. وقد تمكن الإنسان لأول مرة من مراقبة حركة الجزيئات داخل الذرة حين أمكنه الوصول إلى الوحدة الزمنية

(الفيمتو ثانية)، فاستطاع تصوير الحركات السريعة داخل الذرة، باستخدام آلات تصوير فائقة السرعة بسرعة (الفيمتو ثانية).

كما أن اللقطات التي بالكاميرا أو الفيلم يمكن عرضها باتجاه الأمام (أي المستقبل)، ويمكن عرضها باتجاه الخلف (أي الماضي)، فثمة إمكانية لعرض اللقطات بأي اتجاه.

❖ ❖

▱

(ب -٢) الاستئخار والاستقدام:

كل مخلوق له كتاب، وكتابه فيه كل الحركات (اللقطات) التي تكون أثناء ظهوره، والنور يجلي كلَّ شيء لوقته، كلَّ مخلوق، وكلَّ حركة لوقتها. (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون).

وقد اقتضت سنة الله أن يكون مسيرة المخلوق باتجاه الأمام، يعني من بدايته إلى نهايته، والله قادر على أن يعكس النشأة فيكون عرض المخلوق من نهايته إلى بدايته. فتصور ذلك أصبح ممكنا.

وفي ضوء هذا يمكننا فهم قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، في لسان العرب: أخرته فتأخر واستأخر، وقدمته فتقدم واستقدم، قال المفسرون، المعنى: لا يتأخرون ساعة ولا يتقدمون ساعة.

والتأخر (والاستئخار) لم يُشْكِل على المفسرين، وإنما أشكل عليهم التقدم، قال الرازي: (المراد أنه لا يتأخر عن ذلك الأجل المعين لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة إلا أنه تعالى ذكر الساعة لأن هذا اللفظ أقل أسماء الأوقات. فإن قيل: ما معنى قوله: ولا يستقدمون فإن عند حضور الأجل امتنع عقلا وقوع ذلك الأجل في الوقت المتقدم عليه. قلنا: يحمل قوله: فإذا جاء أجلهم على قرب حضور الأجل. تقول العرب: جاء الشتاء إذا قارب وقته ومع مقاربة الأجل يصح التقدم على ذلك تارة والتأخر عنه أخرى).

وقال أبو السعود: ("ولا يستقدمون" أي ولا يتقدمون عليه، وهو عطف على "يستأخرون"، لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع إمكانه في

نفسه كالتأخر، بل المبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلا) فكأن المعنى كما يرى أبو السعود: لا يستأخرون ساعة ويستحيل ذلك التأخر. وهذا ينزه عنه القرآن الكريم.

وقال ابن عاشور: (والمقصود أنهم لا يؤخرون عنه، فعطف ولا يستقدمون لبيان أن ما علمه الله وقدره على وفق علمه لا يقدر أحد على تغييره وصرفه، فكان قوله: ولا يستقدمون لا تعلق له بغرض التهديد. وكل ذلك مبني على تمثيل حالة الذي لا يستطيع التخلص من وعيد أو نحوه بهيئة من احتبس بمكان لا يستطيع تجاوزه إلى الأمام ولا إلى الوراء).

وقد ورد قوله (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) في سورة الأعراف ويونس والنحل، وفي سبأ: (قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ)، وفي الحجر والمؤمنون: (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ).

ومن ثم فدلالة الاستقدام لا مفر منها، ولا مساغ لتأويلها بأنها للمبالغة في نفي التأخر، فذكرها كعدمها، ولا أنها تمثل صورة الاحتباس. فكل ذلك مما تأباه فصاحة كتاب الله سبحانه وتعالى.

كما قلت أن التأخير ليس فيه إشكال، ولذلك فالإنسان قد يطلب تأخيره إلى أجل قريب: (فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ)، وقوله: (لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ)، وقوله: (لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ)، فالتأخير هو ما يدركه عقل الإنسان؛ لأن سيرورة الزمن يتجه إلى الأمام، ومن ثم فهو يتخيل أن بقاءه هو تأخير له.

إلا أن الآيات تبين أن ثمة إمكانيتين لصرف الأجل، إمكانية الاستقدام (السبق)، والاستئخار. فكما يمكن أن يتأخر الإنسان عن أجله فكذلك يمكنه أن يتقدم، وهذا يفسره ما ذكرته أن الله قادر على أن يعكس مسار نشأة الإنسان، فبدلا من أن يتجه إلى التأخر، يكون العكس فيتجه إلى التقدم، ومن ثم يكون التأخر والتقدم كلاهما مهرب من الأجل. كما تأخذ شريط (فيديو) فتقدمه أو تؤخره عن مدة محددة. فالآيات إذن تبين الإمكانيتين، وهذا لا يتصور إلا إذا تصورنا أن الغيب موجود، والإنسان تتابع حركاته، فكما تتابع إلى الأمام فيمكن إعادتها إلى الخلف. والإنسان يوم القيامة سيشاهد ذلك.

❖ ❖



(ب -٣) الاستعجال:

كما يفهم في هذا السياق آيات الاستعجال، كقوله: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)، فهو قد حدث ووقع، ومن ثم فلا داعي للاستعجال؛ لأنه سيأتي في أجله المعلوم. فالاستعجال طلب فعل الشيء قبل أوانه. والله سبحانه وتعالى يبين في كتابه أن كل شيء لأجله، والمكذبون ما فتئوا يستعجلون ما وعدتهم به الرسل من العذاب، أو من اليوم الموعود، والرسل تبين لهم أن كل شيء لأجله المسمى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ). **فهم يستعجلون شيئا يظنون أنه غير موجود (أو يستبعدون وقوعه)، ولكن الله يبين لهم أن الشيء موجود، وأنه سيأتي لأجَله، فهو له أجل مسمى، ولولا الأجل المسمى لتحقق لهم ما يستعجلونه. ولذلك بين لهم أنه جعل نظامه في المخلوقات قائم على أقدارها، فكل شيء خلقه بقدر، وقدر له ظهوره، وأجله، ولولا هذا النظام لفسدت السماوات والأرض،**

قال تعالى: (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)، **قال الزمخشري (أصله: ولو يعجل الله للناس الشرَّ تعجيله لهم الخيرَ)، فالاستعجال بمعنى التعجيل. فمعنى الآية: ولو يعجل الله للناس الشرَّ (فأطلق لفظ الشر بحسب اعتقاد الناس، فهم يعتقدون الموت شرا)، كما يعجل لهم الخيرَ، (وهو أسباب الحياة)، لاختل النظام فقضي إليهم أجلهم قبل مجيء الأجل المسمى. وذلك لا يكون.**

(ب -٤) المحو والإثبات:

ويدل على هذا قوله تعالى: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)، وقد اختلف المفسرون اختلافا كبيرا في مدلول قوله (يمحو) (ويثبت)، ولست بصدد بيانه هنا؛ إنما هذا اللفظ يدل على أن الغيب قد قضاه الله على خلقه، فالمحو لا يكون إلا لشيء موجود، وليس لشيء غير موجود. سواء أكان ذلك مما ظهر واستتر (مضى)، أو مما لم يظهر بعد (ما سيأتي).

وما أفهمه من الآية أن المحو الإثبات لا يكون من (أم الكتاب)، وقد قال بهذا بعض المفسرين، وإنما يكون من كتاب العبد الذي تسجل فيه أعماله، والذي سيراه يوم القيامة.

وأم الكتاب، هو سجلٌ مسبق لكل فعل من أفعال المخلوقات، سواء الإنسان أو غيره. وهو الكتاب الذي أمر الله القلم بأن يكتب فيه مقادير الخلق إلى يوم القيامة، فما من شيء إلا وهو فيه. وفيه كل عمل يعمله الإنسان: خيرا أو شرا أو غير ذلك.

وأما الكتاب فهو سجلّ لأعمال النفوس: الحسنات والسيئات فقط.

فإذا فعل المخلوق الفعل المقدر له، فإن كان المخلوق سيحاسب على فعله ويجازى (كالإنسان)، فإن فعله يكتب في كتاب آخر، وهو سجل أعماله، والذي يكتب فيه الحسنات والسيئات، (فهو المثبت)، والذي لا يكتب فيه سائر الأعمال الأخرى (فهو الممحوّ)، فمحوه ليس من أم الكتاب، ولكن من سجل الأعمال. وهذا تفسير قوله تعالى: (هَذَا

كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، أي: كنا نستنسخ ما عملتم من خير أو شر، فنستنسخه من أم الكتاب إلى كتاب الأعمال، بعد أن تعملوه.

وإن كان المخلوق غير محاسب، كالسحاب والجبال والشمس... فكل حركة يتحركها مسجلة في أم الكتاب، وليس له كتاب تنسخ فيه حركاته وأفعاله.

فهذه دلالة المحو والإثبات، إثبات حسنات النفوس وسيئاتها في كتابها، وسينطق عليهم يوم القيامة بالحق. ولا يسجل فيه أفعال وحركات المخلوقات غير المحاسبة. كما لا يسجل فيه ما عدا الحسنات والسيئات من أفعال المخلوقات المحاسبة.

قال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)، فالعبد سيرى مثاقيل الخير ومثاقيل الشر، وما سواهما فلا قيمة له، ولا أهمية لرؤيته، فالله يمحوه.

وأما الحسنات والسيئات، فالله يغفرها؛ فمن استغفر ربه غفر له فمحا سيئاته من صحيفته، وأما الحسنات فيثبتها له. وأيضا من كفر بالله من بعد إيمانه محا الله حسناته من صحيفته، فالكفر يجُبّ ما قبله كما أن الإسلام يجُبّ ما قبله. وقد دلت أحاديث كثيرة على أن المحو يكون للسيئات، مثلا: (من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة)، (إذا أسلم العبد فحسن إسلامه، كتب الله له كل

حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها).

بل إن السيئات تتبدل حسنات إذا أحسن العبد التوبة، قال تعالى: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا). **فتتحول النقاط المظلمة في صحيفته إلى أنوار مشعة.**

والمحو هنا لا يعني الإزالة التامة، فما من إنسان إلا وسيرى كل ما عمله من عمل خيرا أو شرا، تاب منه أو لم يتب (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ). **ولكن المحو يفسره لفظ (المغفرة)، فالله هو الغفار، والغفار الذي يغفر الذنوب، أي يغطيها ويسترها. ومن ثم يبطل أثرها، فلا يعود العبد مرتهنا بالكسب السيء. ففي الصحيحين أن العبد المؤمن التائب يرى ذنوبه يوم القيامة، فيخبره ربه بأنه منّ عليه بمغفرته، (إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته). والله أعلم.**

❖ ❖



(ب -٥) الرؤيا الصادقة:

ومما يدل على وجود عالم الغيب وجودا حقيقيا: الرؤيا الصادقة، فهي نافذة إلى عالم الغيب، سواء أكان غيبا ظهر واستتر، أو غيبا لما يظهر، كما هي نافذة إلى عالم الشهادة غير المدرك، أو الذي يمكن إدراكه، أو حتى المدرك. وسواء تعلق بالشخص الرائي (وهو الغالب) أو بغيره.

وفي سورة يوسف بيان واضح لذلك، فيوسف عليه السلام قال لأبيه: (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)، فهي نافذة من عالم الغيب الذي سيظهر، رآه قبل ظهوره، وقد تحقق ذلك (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا). وكذلك رؤيا الملك؛ فقد رأى خمسة عشر عاما قادمة.

ولذلك جاء في صحيح البخاري أن الرؤيا الصادقة من المبشرات، وفي حديث عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أول ما بدئ الوحي بالرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.



(ب -٦) الاستنساخ:

قال تعالى: (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)،

جاء في الحديث الذي أخرجه أبو يعلى والبيهقي والآجري، وصححه الألباني: (إنَّ أول شيءٍ خَلَقَهَ الله عزَّ وجلَّ: القلمُ، فأخذَهُ بيمينه - وكلتا يديهِ يمين - قال: فكتبَ الدنيا وما يكونُ فيها من عملٍ معمولٍ: برٍّ أو فجورٍ، رطب أو يابس، فأحصاهُ عندَه في الذِّكر، ثم قال: اقرأُوا إن شئتم: "هذا كتابُنا يَنْطِقُ عليكم بالحق إنا كنا نَسْتَنْسِخُ ما كنتم تعملون"؛ فهل تكون النسخةُ إلا مِنْ أمرٍ قد فُرِغَ منه).

ورواه الحاكم موقوفا عن ابن عباس وصححه الذهبي: (أول ما خلق الله القلم خلقه من هجا قبل الألف واللام، فَتَصَوَّرَ قَلَمًا من نور، فقيل له: اجر في اللوح المحفوظ، قال: يا رب بماذا؟ قال: بما يكون إلى يوم القيامة، فلما خلق الله الخلق وكل بالخلق حفظة يحفظون عليهم أعمالهم، فلما قامت القيامة عرضت عليهم أعمالهم وقيل: "هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون"، عرض بالكتابين فكانا سواء"، قال ابن عباس: ألستم عربا؟ هل تكون النسخة إلا من كتاب).

هذه الأحاديث تفسر الآية أتم تفسير، ولاحظ في حديث ابن عباس (فَتَصَوَّرَ قَلَمًا من نور)، فهو من نور، والله يجلي بنوره كل شيء لوقته.

قال حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، حين سئل: أنعمل

لشيء قد جرت به المقادير وجفت به الأقلام أم لشيء يستقبل؟ قال: «بل لشيء قد جرت به المقادير، وجفت به الأقلام»، قيل: ففيم العمل يا رسول الله؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خُلِق».

وفي الصحيحين: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة» قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة».

وفي رواية: يا رسول الله، يا رسول الله، فيم العمل؟ أفي شيء قد فرغ منه؟ أو في شيء نستأنفه؟ قال: "بل على أمر قد فرغ منه "، قال: قلت: ففيم العمل يا رسول الله؟ قال: " كل ميسر لما خلق له" [نستأنفه، أي: شيء نعمله مستقبلا]

إذن فهو شيء قد جرت به المقادير، وليس بمستقبل، إلا في إدراك الإنسان. ولا يصح أن يحتج أحد بالقدر؛ لأن من يحتج به فكأنه يدعي علم الغيب، إذ يزعم أنه يعلم ما جرى به القدر. (سأفصل القول في هذه المسألة عند حديثي عن القدر إن شاء الله).

فـ"مستقبل" الإنسان قد وُجد، ومستقبل كل مخلوق قد وُجد، ولكنه في ظلمة، فهو محجوب بحجب من الظلمة، وحين يجليه نور الله يظهر.

□

(ج) مفاتح الغيب:

قال تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ).

مع المفسرين:

ذكر ابن الجوزي في زاد المسير أن (مفاتح الغيب) فيها سبعة أقوال:

الأول: أنها خمس لا يعلمها إلا الله عز وجل، وهي ما رواه البخاري من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا تعلم نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله».

والثاني: أنها خزائن غيب السماوات من الأقدار والأرزاق. والثالث: ما غاب عن الخلق من الثواب والعقاب، وما تصير إليه الأمور. والرابع: خزائن غيب العذاب، متى ينزل. والخامس: الأمور التي يستدل بها على الغائب فتعلم حقيقته. والسادس: عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال. والسابع: ما لم يكن، هل يكون، أم لا يكون؟ وما يكون كيف يكون، وما لا يكون إن كان، كيف يكون؟

التحقيق في الآية:

هذه الآية فيها مجموعة من العناصر، وبيانها يساعدنا في كشف دلالتها. هذه العناصر هي: (وعنده) (مفاتح) (الغيب) (يعلمها) (لا يعلمها إلا هو).

(وعنده):

فقوله (وعنده)، يبين أن مفاتح الغيب لها وجود حقيقي، وأنها عنده سبحانه وتعالى، ولا يحمل لفظ (عنده) على العلم فقط، حتى لا يكون في الآية تكرار.

فدلالة قوله (وعنده)، أي أنها موجودة حقيقة، ووجودها في كتاب مبين، وهو ما جاء في آخر الآية (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، **فكل ذلك من مفاتح الغيب وغيرها مما علمه الله، كله في كتاب مبين.**

(مفاتح):

وقوله (مفاتح) جمع: مِفتَح، وفي اللغة: المفتح والمفتاح هو الآلة التي تفتح بها المغالق. ولا داعي لحملها على المجاز، بل هي مفاتح حقيقية. فمفاتح الغيب هي مفاتح لا نعلم حقيقتها، وطبيعتها، وطريقة عملها، ولكننا نؤمن أنها مفاتح يفتح الله بها الغيب.

وقد جعلها بعض المفسرين من باب الاستعارة، قال القرطبي: (وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان).

وتحقيق القول أن المفتح ليس حقيقة في الآلة المعروفة، بل كل ما يتوصل به إلى مشاهدة المغيب فهو مفتاح، ومنه مفتاح الباب، ومفتاح الخزينة، وقد يكون المفتاح محسوسا كما هو معلوم، وقد تفتح الباب بأرقام ورموز، وقد تفتحه ببصمة، وقد تفتحه ببصمة

صوتية... فالإنسان اليوم صنع أنواعا شتى من هذه المفاتيح، وكلها يتوصل بها إلى مشاهدة المغيب عن الإنسان، في الخزينة أو في الدار... الخ. فمفاتح الغيب هي الأمور التي يتوصل به إلى كشف الحجب عن عالم الغيب.

(الغيب):

وقوله (الغيب)، بينت دلالة الغيب. وكون الغيب له مفاتح، فهذا يعني أن الغيب ذو وجود حقيقي، وأن مفاتح الغيب، مفاتح يفتح الله بها عالَم الغيب، فيصبح عالما مشهودا بعد أن كان غيبا.

ومفاتح الغيب ليست هي الغيب، كما أن مفتاح الدار ليس هو الدار، ولكن المفاتح هي الوصائل (جمع وصيلة) التي يتم بها الكشف عن ما في الدار، حين يتم فتحه.

فمثل ذلك مثل مَنْ لديه دار مغلق، لا يعلم ما به، فهو خفي مستتر عنه، فإذا فتحه رأى ما فيه، وأصبح ظاهرا، ولم يعد خفيا. وكذلك الغيب فهو عالم خفي مستتر، ومفاتحه ليست عند أحد من الخلق، وإنما عند الله وحده، فإذا فتح بها الغيب أصبح عالم شهادة؛ إذ يظهر للخلق، وتنكشف الحجب.

(لا يعلمها إلا هو):

وقوله (لا يعلمها إلا هو)، فمفاتح الغيب هي من الغيب المطلق الذي لا يعلمه أحد إلا الله سبحانه وتعالى. واللّه قد أخبرنا أنه يطلع بعض خلقه على الغيب، والغيب غير مفاتح الغيب. فهو يطلعهم على الغيب، وذلك بفتحه لهم، أي كشف حجبه لهم، فيشاهدون ما غاب

عن سواهم، كالرسل.

فالآية تبين لنا ما يلي:

١) الغيب ليس هو مفاتح الغيب، فمفاتح الغيب هي الوصائل التي يتم بها فتح الغيب، فالله يفتح الغيب بتلك المفاتح.

٢) مفاتح الغيب موجودة (في كتاب مبين)، فهي عنده سبحانه وتعالى. كما أنها لا يعلمها أحد إلا هو.

٣) الكتاب المبين فيه مفاتح الغيب وفيه غيرها مما يعلمه الله في البر والبحر، ومما يعمله الناس... والملائكة يشهدون هذا الكتاب، ولكنهم لا يشهدون كل ما فيه، بل يشهدون ما أراد الله أن يطلعوا عليه، وهم لا يطلعون على مفاتح الغيب.

فما مفاتح الغيب؟

ذكرت أقوال المفسرين في ذلك، ومنها الحديث: خمس لا يعلمهن إلا الله.

والحديث تفسير للغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فعلم الساعة وما في الأرحام قبل تخليقها... كل ذلك مما اختص الله نفسه بعلمه، كما في آيات عديدة من القرآن الكريم.

وأعجبني قول ابن حجر في فتح الباري: (علم الله الذي استأثر به دون خلقه لم ينحصر في خمس، بل هو أكثر من ذلك، مثل علمه بعدد خلقه، كما قال: "وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس". ومثل استئثاره بعلمه بذاته وصفاته وأسمائه، كما قال: "ولا يحيطون به علما". وفي حديث ابن

مسعود - في ذكر أسمائه -: "أو استأثرت به في علم الغيب عندك". وإنما ذكرت هذه الخمس لحاجة الناس إلى معرفة اختصاص الله بعلمها، والعلم بمجموعها مما اختص الله بعلمه، وكذلك العلم القاطع بكل فرد من أفرادها).

وكما ذكرت أن "الغيب" ليس هو "مفاتح الغيب"، فمفاتح الغيب هي وصائل الغيب أي: "الأمور التي يتوصل بها إلى فتح عالم الغيب، فيصبح شهادة للخلق أو لبعضهم".

فعلم الساعة هو غيب، ولا يعلمه أحد سوى الله، ومفتاحه عنده، لا يطلع عليه أحدا من خلقه.

وما في الأرحام غيب، ومفتاح هذا الغيب عنده، والله لا يطلع أحدا من خلقه عليه، ولكنه سبحانه يفتح هذا الغيب لمَلَك الأرحام حين يُخَلّق النطفة (فهو أول من يفتح له هذا الغيب)، قال ابن حجر: (وأما العلم بما في الأرحام، فينفرد الله تعالى بعلمه، قبل أن يأمر ملك الأرحام بتخليقه وكتابته، ثم بعد ذلك قد يطلع الله عليه من يشاء من خلقه، كما أطلع عليه ملك الأرحام).

وأود هنا أن أشير إلى دلالة (الأرحام) في القرآن الكريم، وقد تحدثت عنها في (بحث: الخلق في القرآن الكريم)، وبعد أن عرضت الأدلة، ذكرت: أن القرآن الكريم يستخدم لفظ (الأرحام) للدلالة على مرحلة الخلق الأول، فهو قرار للنطفة حتى تتخلق، [أي: نهاية الأسبوع الثامن]. ويستخدم لفظ (البطون) للدلالة على الخلق الأول والخلق الآخر، ففيه الظلمات، وفيه يكون الخلق بعد الخلق الأول.

فمفاتح الغيب هي وصائل الغيب، تكشف الحجب عن الغيب فيصبح شهادة للخلق أو لبعضهم، فالله يكشف الغيب بهذه المفاتح، فهي مفاتح النور التي تكشف الحجب التي تستر الغيب. فإذا أطلع الله أحدا من خلقه على الغيب، فإنه لم يملك مفاتح الغيب، ولم يعلم تلك المفاتح، فالله سبحانه وتعالى يعلم حقيقتها، ويعلم الوقت الذي يقدره لأن تكشف حجب الغيب.

إن هذه الآية تصور الغيب كصندوق مغلق مستور ما فيه، لا يعلمه أحد إلا من أوجده. وحين يأذن الله بأن يفتح منه شيئا فتحه بمفاتح الغيب، فأصبح ظاهرا مشهودا.

□

(٢) أقسام عالَم الغيب (الغيوب):

الحجب التي تحجب عالَم الغيب، إما حجب الظلمات، وإما حجب النور. وحين يُجَلّي اللهُ الغيبَ بنوره يظهر فيصبح مشهودا. والغيب في القرآن الكريم ليس غيبا واحدا، ولكنه غيوب، كما قال تعالى: (عَلَّامُ الْغُيُوبِ). وقد ذكرت في أربعة مواضع.

فالغيب ثلاثة غيوب:

الأول: غيب لم يظهر (أخبار الغيب)،

والثاني: غيب ظهر ثم استتر (أنباء الغيب)، وكلاهما محجوبان بالظلمات،

والثالث: غيب محجوب بالنور.

وقبل أن أتحدث عن هذه الغيوب سأبين الفرق بين الإنباء والإخبار.

الفرق بين: الإنباء والإخبار

الإنباء:

"الإنباء" يستخدم في القرآن الكريم للحديث عن الغيب الذي ظهر ثم استتر، والنبي هو من ينبئ الناس به. ويسمي القرآن الكريم حديثه عن الأمم السابقة: "الأنباء"،

قال تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)،

وقال: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)،

وقال: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)،

وقال: (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ)،

وقال تعالى: (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

وبين تعالى أنه أقام الحجة بهذه الأنباء: (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)، **فالأنباء حكمة بالغة، تحقق دلالة الشهادة بالحق.**

والله سبحانه وتعالى حين يبعث الإنسان يوم القيامة سينبئه بما عمل، فعمله من الغيب الذي ظهر ثم استتر،

قال تعالى: (يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)،

وقال: (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)،

وقال: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ)،

وقال: (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

وقال: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ).



الخبر:

و"الخبر"، يستخدم في القرآن الكريم للحديث عن الغيب الذي لم يظهر، أي: لما يُستقبل (بالنسبة إلى الإنسان)،

قال تعالى: (سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ)،

وقال: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)،

وقال: (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا).

والخبير هو من يخبر الناس عما سيقع (المستقبل)، والله سبحانه وتعالى هو الخبير، أي الذي يخبر الناس بما سيقع، قال تعالى: (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)، **أي: بما سوف تعملونه خبير، فهو خبير به من قبل وقوعه (أي من قبل تجليه، وإلا فوقوعه قد تم في الكتاب المبين). وقال:** (وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا). **وقال:** (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)، **فهو حكيم بما يصلح خلقه، خبير بما سيقع لهم، ففصل كتابه بعلم. والأمم عادة ما تستعين بالخبراء في وضع الخطط المستقبلية، وهم الذين يقرأون المستقبل.**

وتأمل قوله تعالى: (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ)، **فالإنباء بما وقع، والإخبار بما سيقع. وقوله:** (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)، **فالخبير بما سيقع هو الأبصر بما وقع.**

وقال تعالى: (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)، **أي: نبأني العليم بما عملتنّ، الخبير بما ستعملن. كقوله** (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا).

❖ ❖



الأول: غيب لم يظهر: (أخبار الغيب)

كل شيء مخلوق، ولكنه في ظلمة، وحين يأذن الله بتجليته يجليه لوقته، كما بينت ذلك عند قوله (لا يجليها لوقتها إلا هو). فهو غيب حتى يجليه الله. ويستخدم الناس لهذا الغيب مصطلح (المستقبل)، فهو مستقبل في إدراكهم؛ إذ يظنون أنه سيحدث، بينما هو قد حدث، ولكنه كان في ظلمة.

وآيات القدر، ووصف مشاهد المستقبل (بالنسبة إلى الإنسان)، وغيرها تدل دلالة واضحة على أن كل شيء قد خلق، وأن الله يبرأه بنوره (يجلي كل شيء لوقته بنوره). قال تعالى: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، **فهي مخلوقة، ولكنها غائبة لم تظهر بعد، أو قد ظهرت واستترت، ولم يقل: معدومة، فالغائب هو وصف لشيء موجود لا معدوم، وليس لشيء سيوجد، بل هو موجود.**

وحين يتحدث القرآن الكريم عن مشاهد لم تتجلّ بعد، بصيغة وقوع الفعل وتحققه، فإنه يعني أنه قد وقع فعلا، كقوله: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)، **وقوله:** (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ)، **فذلك قد وقع وتم فعلا، ولكنه ما زال غيبا مستورا بالحجب. وحين يأذن الله فتتجلى تلك الحجب بنوره، يصبح الغيب شهادة. وعليه فـ(أتى، ونفخ، وصعق،) هنا ليس كما يقول علماء البيان أنها من التعبير عن المستقبل بصيغة الماضي، بل هي على حقيقتها تعبر عن حدث تم ووقع، إلا أنه ما زال مستورا بالحجب، فهو لمّا يظهر.**

والقرآن الكريم حين يتحدث عن الغيب الذي لم يظهر بعد، قد يأتي بالفعل الدال على الوقوع، مثل (أتى، ونفخ، وصعق، وسيق، وقيل، وقالوا..)، فهو يصف ذلك الغيب الذي وقع، ولكنه ما زال غيبا. وقد يأتي بالفعل الدال على المستقبل، كقوله: (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)، فهو مستقبل بالنظر إلى عدم ظهوره، وليس إلى عدم وقوعه. ومن ثم فهو يصفه بالنظر إلى كونه لم يصبح من عالم الشهادة. وتأمل قوله: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ)، فجمع بين العالمين: عالم الغيب (ففزع)، وعالم الشهادة (ينفخ). ومثله قوله: (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)، ف(ترى) من عالم الشهادة، أي حين يظهر ذلك الأمر. و(فزعوا) من عالم الغيب.



ومن هذا الغيب إخبار القرآن الكريم عن كثير من الأحداث التي تعد (مستقبلا) بالنسبة إلى الإنسان في حياته الدنيا، ومنها: إخباره عن انتصار الروم على الفرس، في قوله:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

وإخباره عن دخول المؤمنين مكة، قال تعالى:

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا).

وإخباره عن مصير بعض رؤوس الكفر، وهلاكهم على الكفر والعياذ بالله، كأبي لهب وامرأته، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ).

▱

الثاني: غيب ظهر ثم استتر: [أنباء الغيب]

وإما يكون قد جلاه الله بنوره، وانتهى أجله، فعاد مستورا بالظلمات (ويسميه الناس: الماضي)، فهو غيب في علم الله وليس ماضيا، وكونه غيبا يعني أنه موجود ولكنه مستور بحجب من الظلمات،

قال تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ).

ومثله قوله: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا)،

وقال: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ).

والقرآن الكريم يسمي ذلك: أنباء الغيب، فأنباء الغيب: هو عالم موجود، وكان ظاهرا حين جلاه الله لوقته، ثم عاد إلى الاستتار.

ولذلك يخبر القرآن الكريم أن الإنسان يوم القيامة سيرى عمله، سيرى كل حركة، قال تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)، **فهي رؤية حقيقية للعمل، يرى الإنسان مؤمنا أو كافرا عمله، ولذلك قال تعالى:** (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)، **فالله يكشف الحجاب عن البصر، فيتمكن من رؤية عمله، فهو يرى الغيب الذي ظهر ثم استتر.**

والقرآن الكريم يستخدم غالبا لفظ (الإنباء)، كقوله:

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)،
وقال: (ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)،
وقال: (ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)...

فقوله (فأنبئكم)، أي أخبركم بتلك الأنباء، فهي أصبحت أنباء، (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ).



ولذلك مثلٌ، رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصف أحداثا ماضية وهو يراها، ففي صحيح مسلم: عن ابن عباس، قال: سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة، فمررنا بواد، فقال: «أي واد هذا؟» فقالوا: وادي الأزرق، فقال: «كأني أنظر إلى موسى صلى الله عليه وسلم - فذكر من لونه وشعره شيئا لم يحفظه داود - واضعا إِصْبَعَيْهِ في أذنيه، له جُؤَارٌ إلى الله بالتلبية، مَارًّا بهذا الوادي» قال: ثم سرنا حتى أتينا على ثَنِيَّةٍ، فقال: «أي ثَنِيَّةٍ هذه؟» قالوا: هَرْشَى - أو لِفْتٌ - فقال: «كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء، عليه جبة صوف، خِطَامُ ناقته لِيفٌ خُلْبَةٌ، مَارًّا بهذا الوادي ملبيا». فهو يصف وصف من يرى، فالله قد جعل بصره حديدا، فكشف له حجب الظلمات، كما كشف له حجب النور [سأوضحه لاحقا].

ومن ذلك ما كشفه الله له من حجب حين أسري به، بعضها حجب لما ظهر واستتر، وبعضها حجب لما لم يظهر بعد. ويمكن الرجوع إلى أحاديث الإسراء التي تصف ما رآه في تلك الرحلة المباركة، التي كشف الله له فيها حجب الظلمات وحجب النور، فرأى

ما مضى، وما سيأتي.

وحين يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن أنباء الغيب، يصف الْمَشاهد وصف موجود لا وصف مندثر، كقوله: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا)، (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا)، **فالإشارة (تلك)، تشير إلى ما يراه الله سبحانه وتعالى من عالم الغيب الذي استتر.**

وقال تعالى: (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)،

وقال: (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ)،

وقال: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ).

وأود أن أبين أن أنباء الغيب كانت شهادة لمن حضرها، ثم تصبح غيبا لمن لم يشهدها. بل إنها تصبح غيبا حتى عن من شهدها. فالإنسان لا يستطيع أن يرى ما عمله حقيقة، حتى التسجيل، هو صورة للعمل، وليس العمل نفسه حقيقة. والإنسان يوم القيامة سيرى عمله حقيقة.

□

الثالث: غيب محجوب بالنور:

وإما يكون محجوبا بحجب من النور، فالجنة قد أعدها الله للمتقين، ولكنها مستورة بحجب النور؛ إذ الجنة نور لا ظلمة فيها. قال تعالى: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا)، **أي تلك الجنات بالغيب، فهي موجودة ولكنها بعالم الغيب.**

وكذلك ربنا سبحانه وتعالى، فهو غيب، محجوب عن خلقه بحجب من النور، كما في صحيح مسلم مرفوعا: (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهِه ما انتهى إليه بصرُه مِن خلقه)، فالله غيب محجوب عن خلقه بالنور، وسيتجلى الله للمؤمنين الذين يخرجهم من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)، **فقوله (بالغيب) متعلق بالمفعول (ربهم)، أي: يخشون ربهم حالة كونه بالغيب، فالله بالغيب، وهم يخشونه ويؤمنون به ولم يشهدوه. [وهذا هو الأرجح كما يظهر لي]، ومثله قوله:** (وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)، **وقوله:** (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)، **وقوله:** (لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ)، **وقوله:** (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ)، **أي: ينصره وهو سبحانه بالغيب.**

وقال تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ)، **أي لا تدركه أبصار أحد من خلقه، فـ(ال) هنا تفيد العموم، والأبصار المقصود بها، أبصار الخلق في الدنيا، فنظامها البصري غير مؤهل إدراك الله**

سبحانه وتعالى.

وقال: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، **وقد فسر الآيةَ حبيبُنا عليه الصلاة والسلام، ففي صحيح مسلم يرفعه: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء). فالله سبحانه وتعالى هو الظاهر بذاته، وكل خلقه لا يظهرون إلا حين يُظهرهم ربهم. فهو الظاهر بذاته الْمُظهر لغيره. فالله في غاية الظهور، ومع ذلك فلا تدركه الأبصار؛ لأنه الباطن.**

فالباطن هو المحتجب عن الأبصار، فليس دونه شيء في الاحتجاب، فهو الباطن بذاته الذي يحتجب عن خلقه فلا يَظهَر لهم، وهو المُبطن لغيره، الذي يحجب ما شاء من خلقه عمن شاء، فالغيب يحجبه الله عن سائر خلقه إلا من ارتضى، و"عالَم الشهادة غير المدرك" يحجبه عن بعض خلقه، (فالملائكة حجبهم عن الناس، فالناس لا يرونهم)، وكذلك إبليس وقبيله (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ).

ومن الغيب المحجوب بالنور كلام الله الذي يوحيه إلى الرسل، فهو غيب يجليه الله لوقته، قال تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ). **وسأفصل القول في هذه المسألة لاحقا.**

□

(٣) أقسام عالَم الشهادة:

قال تعالى: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)،

وقال: (فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ)،

وقال: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). **فالله اختص نفسه بعلم الغيب.**

وقال تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ).

وقد شاع بين العلماء تقسيم الغيب إلى قسمين، غيب مطلق، وغيب نسبي، حيث يقولون إن الغيب المطلق هو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، والغيب النسبي هو ما يعلمه بعض الخلق دون بعض، فهو غيب بالنسبة إلى من لا يعلمه، شهادة بالنسبة إلى من علمه.

وأنا لا أرى هذا التقسيم، فالقرآن الكريم يبين لنا أن هناك غيبا وشهادة فقط. وقد ذكر قوله (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)، **في عشرة مواضع. فالغيب يقابل الشهادة، الغيب هو ما استتر، والشهادة ما ظهر.**

وقد بينت أقسام الغيب، كما في القرآن الكريم.

وأما الشهادَة فهي: إظهار الشيء بعد خفائه، فيصبح مشهودا أي ظاهرا بينا. والله سبحانه وتعالى هو عالِم الغيب والشهادة.

وعالَم الشهادة، هو الشيء الذي يُظهره الله بعد أن كان غيباً، فيصبح ظاهرا بينا. فعالَم الشهادة: عالَم ظاهر، غير مستور بالحجب، وقد جلاه الله بنوره. فالشيء وُجد أولاً في عالَم الغيب، ولكنه يظل خفيا عن الخلق، مستورا عنهم بحجب من الظلمات أو النور. وحين يُظهره الله بنوره يصبح من عالمَ الشهادة. فالله هو

الشهيد، الذي يُظهِر الأشياء بعد خفائها، فيجعلها مشهودة ظاهرة بعد أن كانت مستورة غائبة.

قال تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، **أي سنظهر لهم الآيات ظهورا بينا، فيرونها. أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد، أي مُظهر لكل شيء بعد خفائه، فالله هو الظاهر (الظاهر بذاته)، وهو الشهيد (المُظهر لغيره).**

وبعد أن يُظهر الله الشيء يصبح من عالَم الشهادة، سواء أدركه الإنسان أو لم يدركه، وبناء على ذلك فعالَم الشهادة ينقسم (بالنسبة إلى إدراك الإنسان) إلى ثلاثة أقسام: عالَم الشهادة غير المدرَك، وعالَم الشهادة الذي يمكن إدراكه، وعالَم الشهادة المدرَك.

الأول: عالم غير مدرَك،

وهو عالم شهادة يدركه بعض أجناس الخلق دون بعض، ولكن الإنسان لا يمكنه إدراكه.

فالملائكة مثلاً، هم من عالم الشهادة، ولكن الإنسان غير قادر على إدراك هذا العالم من الشهادة. فليس كل ما لم يدركه الإنسان غيب. وكذلك الجن هم من عالم الشهادة الذي لا يدركه الإنسان.

قال تعالى: (وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا)،

وقال: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا).

ومنه قوله: (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ)، (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) **والآيات تتحدث عن رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل على خِلقته.**

فإذا أطلع الله بعض الناس على هذا العالم من الشهادة، فقد أطلعهم على عالم شهادة غير مدرك (بالنسبة إلى قدرات الإدراك البشري)، وهذه معجزة للرسل.

ومن ذلك مثلاً، فهم سليمان لحديث النمل ولحديث الطير، فهو لم يطلع على غيب، ولكن الله أقدره على إدراك هذا العالم من الشهادة، الذي لا يدركه الإنسان، وتدركه مخلوقات أخرى. فهو ليس غيباً، ولكنه عالَم شهادة لا يستطيع الإنسان أن يدركه. فهي معجزة لنبي الله أن أقدره على إدراك هذا العالم.

وبهذا ينبغي التفريق بين الغيب الذي يطلع الله عليه رسله، وبين عالم الشهادة غير المدرك الذي يمكنهم من إدراكه، فهو معجزة

لهم.

وقد يجعل الله هذا الإدراك فتنة لبعض الناس، فالمسيح الدجال مثلاَ يرى الملائكة، وهذا فتنة.

قال تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)، **فالناس عالم شهادة مدرَك بالنسبة إلى الشيطان، وهو عالم شهادة غير مدرك بالنسبة إلى الإنسان.**

ومن ذلك ما جاء في عذاب القبر، وفي الحديث (فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين)، فهي من عالم الشهادة الذي لا يدركه الإنسان.

ومن ذلك أيضا، قوله تعالى: (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)، **فما حدث بين حفصة وعائشة هو من عالم الشهادة المدرَك بالنسبة إليهما، ولكنه غير مدرَك بالنسبة إلى غيرهما، فإنباء الله رسوله بذلك هو معجزة له، [وليس إطلاعا على الغيب]. وهذا كثير، فقد كان الله يطلعه على الأسرار، وما هو أخفى من الأسرار. فالسر هو ما يسر به الإنسان إلى غيره، والأخفى من السر هو ما يضمره في نفسه، قال تعالى:** (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

وقد كان الله يطلع نبيه على السر وأخفى، فمن إطلاعه على السر ما أظهره الله عليه من سر حفصة وعائشة، وما كان يخطط له

أعداؤه، كاليهود حين هموا بقتله، وكالأعرابي، وكعمير بن وهب... الخ.

قال تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

ومن إطلاعه على خطرات النفوس، حديث إسلام شيبة بن عثمان في حنين، حيث حدثه الرسول بكل ما همّ به وما أضمره في نفسه، قال (حدَّثنى بكلِّ ما أضمرتُ فى نفسى ما لم أكن أذكره لأحد قط).

ومن إطلاعه على عالَم الشهادة غير المدرَك (بالنسبة إلى زمانهم)، إطلاعه على أحداث غزوة مؤتة، وهو مع أصحابه في المدينة، كما جاء في البخاري عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، نعى زيدا، وجعفرا، وابن رواحة للناس، قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الرايةَ زيد، فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان حتى أخذ سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم». وغيرها من الآثار.

والثاني: عالم يمكن إدراكه،

وهو عالم شهادة قد يدركه الإنسان إذا امتلك سلطان العلم.

قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

فالنواة التي داخل الذرة، وما فيها من بروتونات وإلكترونات، ومدارات، وحركة... هي من عالَم الشهادة، والإنسان استطاع أن يدركها حين تقدم به العلم، وقبل مئات السنين لم يكن الإنسان يستطيع إدراك هذا الجزء من عالم الشهادة.

وكذلك ما توصل إليه بالأجهزة الدقيقة، فرأى الخلايا، وصور الأرحام، وصور الكواكب، وصعد إلى القمر... الخ. ومستودَع الجنين (الخلق الآخر)، من عالم الشهادة الذي يمكن إدراكه. ولا ندري أين يمكنه الوصول في المستقبل، فقد يتجاوز المجموعة الشمسة، وأجهزته الراصدة اليوم تجاوزت مسافات هائلة في السماء.

▱

والثالث: عالم مدرَك،

وهو العالم الذي يدركه الإنسان، والناس يتفاوتون في إدراك هذا العالم بحسب علمهم وخبرتهم، فالطبيب مثلاً يدرك مِن تشخيص حال المريض ما لا يدركه غيره، وعالم النبات يدرك من أحوال النباتات ما لا يدركه غيره، وعالم الأرصاد يدرك من حال السحب والأمطار ما لا يدركه غيره... الخ.

ومن هذا العالم المدرك سنن الله التي جعلها مطردة في خلقه،

قال تعالى: (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)،

فالشمس والقمر حسبان، بمعنى أن السنن فيهما مطردة؛ وهذا يمكن الإنسان من حساب (الزمن مستقبلا وماضيا)، كما أن النجوم للهداية، ففيها سنن مطردة، يستطيع الإنسان أن يهتدي بها. ومن تلك السنن سنن الله في الخلق، ولذلك يأمر بالسير والنظر في النشأة الأولى لإدراك النشأة الأولى، (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ). **والآيات في هذا الباب كثيرة.**

وقد قضى الله سبحانه وتعالى باطراد سننه أيضا في مجتمعات الناس ونفوسهم،

قال تعالى: (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)،

وقال: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)،

وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

وبهذه السنن يمكن للناس أن يستشرفوا (المستقبل)، ويهتدوا في ذلك بأمارات جعلها الله في الأشياء تهدي الناس إلى (مستقبلها). والناس متفاوتون في إدراكها، وتظل احتمالات (غير حتمية) تختلف درجتها ودقتها من شخص إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى.

وكما قلت فهي تظل في دائرة الاحتمال مع اختلاف درجته،

- فالخطأ في الاحتمالات مثلاً، في الحسابات المبنية على حركة الشمس والقمر، ضئيل جدا؛ فحساب متغيراتها المختلفة غالبا في إدراك الإنسان، ولذلك يستطيع الإنسان تقدير حساب الأيام والسنين لمئات السنين القادمة.
- وأما تقديرات نزول الأمطار مثلا، فالاحتمالية فيها أضعف، والخطأ في التقدير أكبر؛ فالعلامات والأمارات للإنسان وإدراكه لمتغيراتها محدود، ولكنه يتنبأ وفق ما لديه من إدراك لتلك المتغيرات.
- وأما الخطأ في الاحتمالات المبنية على سنن النفوس والمجتمعات، فهو كبير جدا؛ لعدم قدرة الإنسان على إدراك كثير من المتغيرات، وتفاوت الناس يرجع إلى مدى المتغيرات التي يدركونها، والربط بينها.



ومن عالم الشهادة: ما يُسر الإنسان وما يعلنه،

قال تعالى: (إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ)،

وقال: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)،

وقال: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)،

وقال: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ).

فالله يعلم ما تخفيه الصدور، وما تبديه الوجوه، فما تبديه الوجوه هو من عالَم الشهادة المدرَك، وما تخفيه الصدور هو من عالَم الشهادة غير المدرَك. فكونه من عالم الشهادة؛ لأنه قد تجلى ولم يعد غيباً، وكونه غير مدرَك؛ لأنه لا أحد يدركه إلا صاحبه فقط، ومن أعطاهم الله القدرة على ذلك، كالملائكة الذين يسجلون حسنات الإنسان وسيئاته، ويسجلون هَمّه بها، كما في قوله (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)، **وفي الحديث الذي رواه مسلم مرفوعا: "قال الله عز وجل: إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرا".**

وهنا ينبغي التفريق بين شيئين، الأول: أن ما تضمره النفوس هو من عالَم الشهادة غير المدرك، فلا يدركه إلا صاحبه. والثاني: قراءة ما تضمره النفوس (ويسميه الناس: قراءة الأفكار)، وقد يقوم به خبير، أو أجهزة متطورة تسهم في ذلك. فالحقيقة أن القراءة ليست لشيء غير مدرَك، بل لشيء يمكن إدراكه. ذلك أن الإنسان حين يضمر شيئا، فقد تبدو عليه أمارات ما أضمره، تبدو في تعابير وجهه، أو في حركات جسمه اللاشعورية، (لغة الجسد)، وقد يؤثر ذلك في ذبذبات الدماغ، فيظهر ذلك في الدماء والأعصاب... الخ.

وبذلك فالخطرات نفسها من عالم الشهادة غير المدرك، أما

أماراتها فهي من عالم الشهادة المدرَك.

□

(٤) عالِم الغيب والشهادة

(أ) التعبيرات القرآنية:

أولاً: إسناد الغيب إلى الله سبحانه وتعالى:

جاء إسناد علم الغيب إلى الله سبحانه وتعالى في كثير من الآيات، على النحو التالي:

١. (عالِم الغيب والشهادة):

ورد في عشرة مواضع، كقوله: (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ).

٢. (عالم الغيب):

وردت في موضعين، كقوله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

٣. (عالِم غيب السماوات والأرض):

في موضع واحد، قوله: (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

٤. (علاّم الغيوب):

وردت في أربعة مواضع، كقوله (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ).

٥. (غيبه):

إضافة الغيب إلى الله سبحانه وتعالى، في موضع واحد: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا).

٦. (يعلم غيب السماوات والأرض):

فوقع فعل العلم على الغيب، في موضوعين، قوله: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، **وقوله:** (إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

ووقع بصيغة الحصر في قوله: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ).

وقوله: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ).

٧. (عنده مفاتح الغيب):

جاء في قوله: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ).

٨. الغيب لله:

في أربعة مواضع، قوله: (إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ)، **وقوله:** (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) **مرتين، وقوله:** (لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). **وهذه الصيغ تفيد الحصر والقصر، فالغيب ليس لأحد إلا لله.**

٩. الله بالغيب:

فالله غيب بالنسبة إلى خلقه، والمؤمنون يؤمنون به وهو غيب، كما في قوله: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)، **فقوله (بالغيب) متعلق بالمفعول (ربهم)، أي: يخشون ربهم حالة كونه بالغيب، فالله بالغيب، وهم يخشونه ويؤمنون به ولم يشهدوه. كما بينت هذا سابقاً. ومثله**

قوله: (وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ).

١٠. الله لا يغيب عن شيء، بل يشهد كل شيء:

في قوله: (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ).

وكل شيء غائب فإنما هو في كتاب: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ثانياً: أوجه إسناد الغيب إلى غير الله:

١. لا أحد منهم يعلم الغيب:

في قوله: (لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)،

والنبيون مأمورون ببيان هذا الأمر: (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)، (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ). **وهم فعلوا ذلك:** (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ).

والجن لا تعلم الغيب، قال: (فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ).

والبشر لم يطلعوا على الغيب، قال: (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)، **وقال:** (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى)، **وقال:** (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ).

والأنبياء – كغيرهم من البشر – مداركهم محدودة، وتغيب عنهم كثير من الأشياء، فلا يرونها، قال سليمان عليه السلام: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ).

٢. لا يطلع أحد منهم إلا من شاء الله:

في **قوله** (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ)، **وقوله:** (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ).

٣. أوحى الله إلى رسوله من الغيب:

في **قوله:** (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ).

وهو مؤتمن على الغيب الذي لديه: (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ).

٤. المؤمنون من يؤمنون الغيب:

في **قوله:** (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ).

٥. المبطلون من يقذفون بالغيب:

في **قوله:** (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)، **وقوله:** (رَجْمًا بِالْغَيْبِ).

□

(ب) عالم الغيب والشهادة:

تحدثت عن أقسام عالَم الغيب، وأقسام عالَم الشهادة.

والله سبحانه وتعالى قد اختص لنفسه العلم بعالم الغيب [إلا من أطلع عليه من خلقه]. أما عالم الشهادة، فإن الله سبحانه وتعالى اختص لنفسه العلم المحيط المحصي له.

قال تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ). **فالآية تتحدث عن اختصاص الله بعلم مفاتح الغيب، كما تتحدث عن اختصاصه بإحصاء عالم الشهادة.**

فعالم الشهادة هو من يختص بعلمه إحصاء تاما، فما من ورقة إلا ويعلمه علما تاما منذ نشأتها حتى سقوطها، وما من ذرة إلا ويعلمها علما تاما، وما من قطرة إلا ويعلمها علما مفصلا، وما من خلية إلا ويعلمها علما بينا تاما، وما من نفَس إلا ويعلمه، وما من حركة إلا ويعلمها. فهذه كلها من عالم الشهادة، ولكن العلم بها علما مفصلا محصيا لها، لا يكون إلا له سبحانه وتعالى. فهو العليم المحيط بكل شيء، المحصي لكل شيء.

قال تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

وقال: (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا)،

وقال: (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)،

وقال: (وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)، (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا).

وقال تعالى: (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)، **فجمع في هذه الآيات بين اختصاصه بعلم الغيب، واختصاصه بإحصاء عالم الشهادة، فهو العلم المفصل.**

ومثله قوله: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ)، **فهو يشير إلى أول الحمل ونهايته (وهو أول الوضع)، فبدء الحمل من عالم الغيب، لا يعلمه إلا الله، والوضع من عالم الشهادة.** (إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا).

ومثله قوله: (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ)، (إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا). **وقد استدل على ذلك في قوله:** (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، **فهو يعلم مستقر الدواب ومستودعها، فالمستقر من عالم الغيب، والمستودع من عالم الشهادة الذي يمكن إدراكه. قال تعالى:** (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ).

سبحانه وكيل على كل شيء، حفيظ لكل شيء، حسيب لكل شيء

قال: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)،

وقال: (إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)،

وقال: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا).

❖❖

وبهذا يتبين ألا زمنية بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما يطلق القرآن على ذلك: عالم الغيب، وعالم الشهادة. فكله موجود، ولكن ما لم يجلّه بنوره بعد، أو جلاّه وانقضى أجله، فهو غيب. وما جلاّه بنوره وما زال فهو عالم الشهادة.

وحيثما اقترن الغيب والشهادة فإن "الغيب" مقدم على "الشهادة"، وهذا واضح؛ لأن عالَم الغيب أسبق من عالَم الشهادة، فالشهادة هو ما جلاه الله بنوره بعد أن كان غيبا.

□

(ج) علام الغيوب:

بينت أن المراد بقوله: (علام الغيوب) هو الغيوب الثلاثة، وهي: غيب لم يظهر، وغيب ظهر ثم استتر، وغيب محجوب بالنور.

(د) عالِم الغيب:

ورد قوله: (عَالِم الْغَيْبِ) في موضعين، في قوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)، **وقوله:** (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

فالآية الأولى تتحدث عن أن الله وحده من يعلم الغيب، ولكنه يظهر على بعض منه من شاء من خلقه، فلذلك لم يقترن بالشهادة؛ لأن الغيب هو ما يختص به بعض رسله، أما الشهادة فهي لهم ولغيرهم.

وفي الآية الثانية يتحدث عن الساعة، والساعة من الغيب الذي لم يظهر، واختص الله نفسه بعلمها، فلم يظهرها لأحد، كما قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)،

وقال: (وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)،

وقال: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)،

وقال: (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ).

(هـ) عالم غيب السماوات والأرض:

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)، **ورد في موضع واحد، أي عالم الغيب الذي في السماوات والأرض. فالسماوات والأرض فيهما غيب كثير، وحجب الظلمات تحجب كثيرا مما فيهما.**

ومن الغيب الذي فيهما أنباء الماضي، كما قال تعالى: (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ)، **فلبثهم وما فيه، أصبح غيبا عن الخلق، والله يبصره ويسمعه.**

ومن الغيب ما لم يظهر، كقوله: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)، **وكذلك قوله:** (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ). **أي يعلم غيبهما، ويبصر ما تعملون، وما يعمله الإنسان من عالم الشهادة المدرَك، ولكن لا أحد يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى. ومثله قوله:** (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ). **فالله يعلم ما تخفيه الصدور، وما تبديه الوجوه، فما تبديه الوجوه هو من عالم الشهادة المدرَك، وما تخفيه الصدور هو من عالم الشهادة غير المدرَك. وقد تحدثت عن هذه المسألة آنفاً.**

□

(و) فلا يظهر على غيبه أحدا:

الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، كمفاتح الغيب، وعلم الساعة، وهذه لا يعلمها إلا هو.

ومن الغيب ما يُظهر عليه بعضا من خلقه، وهو غيب يُظهره الله لأفراد من خلقه (وليس أجناس)، فما في الأرحام غيب يظهره الله لملَك الأرحام، حين تتخلق النطفة. جاء في الحديث الصحيح: (إن الله عز وجل وكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقه قال: أذكر أم أنثى، شقي أم سعيد، فما الرزق والأجل، فَيُكْتَبُ في بطن أمه). وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن مسعود قال: (النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك من الأرحام بكفه فقال: يا رب، مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الرحم دما، وإن قيل: مخلقة قال: يا رب، أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ ما الأجل وما الأثر وما الرزق؟ وبأي أرض تموت؟ فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله، فيقال: من رازقك؟ فتقول، الله، فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش في أجلها وتأكل في رزقها وتطأ في أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك المكان). قال ابن حجر في فتح الباري: (وأما العلم بما في الأرحام، فينفرد الله تعالى بعلمه، قبل أن يأمر ملك الأرحام بتخليقه وكتابته، ثم بعد ذلك قد يطلع الله عليه من يشاء من خلقه، كما أطلع عليه ملك الأرحام).

والجنة غيب أظهرها الله لمحمد صلى الله عليه وسلم. وما في

الكتاب المرقوم غيب، يشهده المقربون ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

وإظهار الغيب للمخلوق يكون بإدراكه إدراكا حقيقيا، فيشهده، ويكون مشهودا لديه. وهذا غير الإلهام أو الرؤيا الصادقة فليس فيها إظهار على الغيب، ولا مشاهدة له، فهي من باب الحدس والظن لا اليقين، كما بينت آنفا.

فالله يكشف الحجبَ لمن يُظهر له غيبه، يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، **فهي قوة خاصة للإدراك، يبصر بها الغيب، كما سيبصر الإنسان في ذلك اليوم عمله (أنباء الغيب).**

قال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث، عند قوله ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، **قال: (أعلمه أن الجبل لا يقوم لتجليه حتى يصير دكا، وإن الجبال إذا ضعفت عن احتمال ذلك، فابن آدم أحرى أن يكون أضعف؛ إلى أن يعطيه الله تعالى يوم القيامة ما يقوى به على النظر، ويكشف عن بصره الغطاء الذي كان في الدنيا. والتجلي: هو الظهور، ومنه يقال: "جلوت العروس" إذا أبرزتها).**

والأنبياء بينوا بكل وضوح أنهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم ربهم، فهذا نوح: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، **ومحمد صلى الله عليه وسلم:** ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى

وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ). **وقال:** (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

□

(ز) وما هو على الغيب بضنين:

قال تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا).

وقال تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ).

قوله: (إلا من ارتضى من رسول): فسرها بعضهم بالرسول الملكي والبشري، وخصها بعضهم بالرسول البشري، وخص الغيب – كما في فتح القدير - بما يتعلق برسالته كالمعجزة وأحكام التكاليف وجزاء الأعمال وما يبينه من أحوال الآخرة، لا ما لا يتعلق برسالته من الغيوب، كوقت قيام الساعة ونحوه.

فالغيب قيل هو الوحي المتعلق بالرسالة، وقيل يشمل ما أظهره الله عليه من الغيب، وكذلك فسر الغيب في قوله: (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ).

والراجح أن الغيب هو الوحي المأمور الرسول بتبليغه، لقوله (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ)، فهو غيب هم مأمورون بإبلاغه، وهذا هو الوحي، وإلا فإن الله يظهر رسله على كثير من الغيب الذي يخصهم أنفسهم، ويخص أتباعهم، وغيرهم من الناس، وليس بالضرورة أن يقوم الرسول بتبليغ كل ذلك، فإن مثل ذلك سيحدث فتنة لأتباعه وأعدائه. (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)، (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ).

وقوله (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)، **أي: وما محمد صلى الله عليه وسلم على الغيب (وهو القرآن الكريم الذي أوحي إليه) بضنين، قرئت (بظنين): متهم، و(بضنين): بخيل، بل يبذله لكل أحد. وفي ابن كثير: (قال سفيان ابن عيينة: ظنين وضنين سواء، أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر. والظنين: المتهم، والضنين: البخيل. وقال قتادة: كان القرآن غيبا، فأنزله الله على محمد، فما ضن به على الناس، بل بلغه ونشره وبذله لكل من أراده). وقال ابن عاشور: (ويجوز أن يكون «ضنين» مجازا مرسلا في الكتمان بعلاقة اللزوم؛ لأن الكتمان بخل بالأمر المعلوم للكاتم، أي ما هو بكاتم الغيب، أي ما يوحى إليه.. أو لتضمين «ضنين» معنى حريص، والحرص: شدة البخل وما محمد بكاتم شيئا من الغيب، فما أخبركم به فهو عين ما أوحيناه إليه).**

وقوله (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا)، قال المفسرون: أي: يخصه بمزيد من معقبات الملائكة الذي يحفظون الرسول، ويرصدونه، ويحيطون بالغيب الذي يظهره الله عليه. وهذا يفسر قوله تعالى: (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)، **فالرصد يعزلونهم عن الاطلاع على هذا الغيب.**

وقوله تعالى (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم)، أي: ليعلم الله أن قد أبلغت الرسل رسالات ربها، وهو الغيب الذي أظهرهم عليه، وهذا يؤيد تفسير الغيب بالوحي. وهذا يفسر قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)، **فهو مأمور بتبليغ الغيب المنزل عليه وحيا من ربه، وقد تكفل الله**

بعصمته.

فالراجح إذن أن الغيب الوارد في هذه الآيات، هو الوحي الذي ينزله على الرسل، فهو كلمة الله، وهو غيب يُظهره الله لوقته. قال تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)، (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ). **فهو غيب مصون، في كتاب مكنون، لا يمسه أحد إلا المطهرون، وهم ملائكة مخصوصون.**

والله سبحانه وتعالى يطلع الرسل على ما شاء من الغيوب، سبحانه وتعالى، والرسول صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن كثير من أحداث (الماضي) و(المستقبل)، يصفها وهو يراها رأي العين، فالله جعل له قدرة خاصة تكشف حجب الظلمات، وحجب النور، فيرى الأحداث المستورة بتلك الحجب. وقد قدمت أدلة على ذلك.

□

(٥) إن قرآن الفجر كان مشهودا

أتناول في هذا القسم مفهوم (المشهود)، ودلالة الآية، وما الذي يعنيه أن قرآن الفجر كان مشهودا، والتحقيق في الصلاة الوسطى.

قال تعالى: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا).

تبين الآية أن قرآن الفجر كان مشهوداً. فما مفهوم قوله (مشهود)؟ وما العلاقة بين وصف الفجر أنه مشهود، وبين وصف القيامة بأنه يوم مشهود، في قوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ).

(أ) مفهوم (المشهود):

(أولاً): اليوم المشهود:

اليوم المشهود هو يوم القيامة. قال القرطبي في التذكرة: (سمي بذلك؛ لأنه يشهده كل مخلوق، وقيل: لأن الشهداء يشهدون فيه على ما يأتي).

فـ(مشهود) قد يكون من الشهود، وقد يكون من الشهادة. وكلا المعنيين مراعى في تسميته باليوم المشهود. فهو يوم يشهده الخلق جميعهم، إنسهم وجنهم وملائكتهم، وغيرهم ممن يبعثهم الله. وهو يوم الشهادات، كل نفس فيه شاهدة، وكل نفس مشهود عليها.

وعندي أيضا معنى ثالث في تسميته، وهو أنه اليوم الذي يصبح عالَم الغيب فيه عالمَ شهادة، فالله غيب وسيكون شهادة في ذلك

اليوم، واليوم الآخر غيب وسيكون شهادة في ذلك اليوم، والجنة والنار غيب وسيكونان شهادة. (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)، أي أصبحت بارزة ظاهرة. والأنباء السابقة للناس غيب وستصبح شهادة، وأنباء كل إنسان تصبح شهادة قُبالةَ ناظريه. كما أن الإنسان يدرك عالَم الشهادة الذي لم يكن يدركه في الدنيا، كالملائكة والجان. (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ).

منا أن البعث بعد الموت كان غيباً، وأصبح حقيقة مشهودة للإنسان. حيث يقوم الخلق من مرقدهم إلى ربهم ينسلون.

(ثانياً): وقت الفجر مشهود:

قوله: (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا).

مع المفسرين:

قال المفسرون: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار.

ويورد المفسرون الحديث الذي في البخاري: (عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر". ويقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: "وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا"). فهذا تفسير أبي هريرة للآية.

وقال أبو السعود: (يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، أو شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذي هو أخو الموت، أو يشهده كثير من المصلين، أو من حقه أن يشهده الجم الغفير).

التعقيب:

حتى تتبين الدلالة الدقيقة لقوله (إن قرآن الفجر كان مشهودا)، فسأربطها بقوله تعالى: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ).

فاليوم المشهود هو يوم القيامة، وهو اليوم الذي يبعث الله فيه النفوس بعد موتها، وهي النفوس التي قبضها الله، حتى إذا جاء اليوم المشهود بعثها فعادت كل نفس إلى الجسد الذي أنبته الله (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)**. وحينئذ تعود النفوس من عالم الغيب إلى عالم الشهادة (إذ يصبح يوم القيامة من عالم الشهادة)، فتشهد ذلك اليوم المشهود. ولفظ "النفوس" يشمل كل ذي نفس خلقها الله سبحانه وتعالى، وخلق فيها الموت والحياة.**

والوقت المشهود، هو وقت الفجر؛ حيث يبعث الله فيه النفوس بعد وفاتها بالليل (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ)، **فتشهد ذلك الوقتَ النفوسُ المبعوثةُ كلها، فهو وقت مشهود.**

فوقت الفجر هو البعث الأصغر، ويذكّر الناس بالبعث الأكبر، فالله يتوفى الأنفس حين النوم، ثم يبعثها، فتعود من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فيكون وقتا مشهودا. فالفجر إذن هو الوقت المشهود، الذي تعود فيه النفوس المرسلة إلى أجسادها.

وهو وقت يفلق الله فيه الإصباح (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ)، **أي يشق ظلام**

الليل ويخرج منه الإصباح، فيخرج هذا الإصباح من رحم الظلمات. فالفلْق: شق الشيء المظلم وإخراج الشيء المفلوق منه. [انظر: الظلمات والنور في القرآن].

فصلاة الفجر لا ترتبط (كبقية الصلوات) بحركة الشمس، وإنما ارتبطت ببعث النفوس بعد وفاتها ليلا (نفوس الإنس وغيرهم من المخلوقات ذات النفوس)، وشهودها ذلك الوقت، فكان مذكرا لهم باليوم المشهود.

فالمشهود في القرآن الكريم، أطلق وصفاً على زمن البعث الأكبر (وسيأتي مرة واحدة فقط)، وعلى زمن البعث الأصغر في الدنيا (ويتحقق في الأرض مرة واحدة كل يوم وليلة).

□

(ب) مفهوم آية الإسراء ودلالة ألفاظها:

تتحدث الآية عن ثلاثة متغيرات زمانية في الأرض، خلال اليوم والليلة، المتغير الأول: دلوك الشمس، والثاني: غسق الليل، والثالث: الفجر.

ويأتي الأمر بإقامة الصلاة مع هذه المتغيرات الزمانية.

وكثير من العبادات في الإسلام ترتبط بأوقات زمانية محددة، حيث إن هذه الأوقات تمثل متغيرات، كالصلوات الخمس، وكالقيام، وصلوات الكسوف والخسوف، والاستسقاء، والذكر قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، والاستغفار بالسحر...

(دُلُوك الشمس):

قال الأزهري: (الدُّلُوك: الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالِكة، وقيل لها إذا أفلت: دالِكة؛ لأنها في الحالتين زائلة... ودَلَكت الشمس: ارتفعت؛ وسمي ارتفاعها دلوكا لزوالها عن مطلعها).

وفي مقاييس اللغة: (الدال واللام والكاف أصل واحد يدل على زوال شيء عن شيء، ولا يكون إلا برفق. يقال دلكت الشمس: زالت... ومنه: دلكتُ الشيءَ؛ وذلك أنك إذا فعلت ذلك لم تكد يدك تستقر على مكان دون مكان.. وقد تأملت في هذا الباب من أوله إلى آخره فلا ترى الدال مؤتلفة مع اللام بحرف ثالث إلا وهي تدل على حركة ومجيء، وذهاب وزوال من مكان إلى مكان).

قال ابن تيمية في جامع المسائل: (والتحقيق أن الزوال أول دلوكها، والغروب كمال دلوكها، فمن حين الزوال إلى الغروب دالكة، كما هي زائلة بارحة، ولهذا سميت "بَرَاح"، ويقال: دلكتْ بَرَاح. ولهذا قال تعالى: (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق اليل) ، فالدلوك يتناول الظهر والعصر، وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء).

دُلوك الشمس إذن حركة الشمس من ناحية إلى ناحية، (من المشرق إلى المغرب)، فالشمس تشرق وتستمر في ارتفاعها حتى تكون في كبد السماء، ثم تبدأ بالميل باتجاه المغرب، وتتجه إلى الغروب حتى تغرب. فبَدْء ميلها بعد ارتفاعها باتجاه الغروب هو دلوكها، ويستمر دلوكها حتى تغرب.

وأول دلوك الشمس شرع الله صلاة الظهر وهو أول زوال الشمس، ثم حين يتوسط دلوكها فيصبح ظل الشيء مثليه شرعت صلاة العصر.

(غسق الليل):

في الصحاح: (غَسَقَ الجرح غَسَقاناً: إذا سال منه ماء أصفر)،

وفي لسان العرب: (غَسَقت عَيْنُهُ تَغْسِقُ غَسْقاً وغَسَقاناً: دَمَعَتْ، وَقِيلَ: انصبَّت، وَقِيلَ: أَظلمت. والغَسَقان: الانْصِبَابُ. وغَسَق اللبنُ غَسْقاً: انْصَبَّ مِنَ الضَّرْعِ. وغَسَقت السَّمَاءُ تَغْسِق غَسْقاً وغَسَقاناً: انصبَّت وأَرَشَّتْ... وغَسَق الليل يَغْسِق غَسْقاً وغَسَقاناً وأَغْسَقَ؛ عَنْ ثَعْلَبٍ: انْصَبَّ وأَظلم).

فالغسق هو السيلان والانصباب. وغَسَقُ الليل: سيلانه وانصبابه كما قال ثعلب. قال د. زغلول النجار: (تشبيها لانصباب ظلمة الليل على أفق الأرض بالتدريج بسيلان السوائل على سطح الأرض). وجاء في اللسان: (قال ابن شميل: غَسَق الليل: دخول أوله).

فغسق الليل يبدأ من غروب الشمس، حيث تغيب الشمس فتظل أشعتها في الأفق، ويستمر سيلان الليل على الأرض حتى تنتهي خيوط أشعة الشمس (وهو غياب الشفق)، وهذا قوله تعالى: (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا)، فالليل يسيل على النهار، وهذا غشيانه، ويستمر طلبه له حتى يغيب الشفق، ويسمى الليل في هذا الوقت: غاسق. وتشبه هذه العملية كما لو كان لديك كوب وبدأت تصب الماء فيه، حتى يمتلئ. فكذلك الليل يسيل على (كوب نهار الأرض)، حتى يمتلئ، فيغيب كل أثر للشمس.

وقد شرع الله أثناء هذه العملية صلاتي العشاء، (العشاء الأولى والعشاء الآخرة)، فالمغرب حين يبدأ سيلان الليل، والعشاء حين يكتمل سيلان الليل على الأرض.

(قرآن الفجر):

قوله (قرآن) منصوب، وجمهور المفسرين على أنه معطوف على الصلاة، أي: أقم الصلاةَ وأقم قرآنَ الفجر. ثم قالوا إن المقصود بقرآن الفجر: صلاة الفجر، وأنها سميت بذلك لأن القراءة ركن، فسميت الصلاة بجزء منها، كما يقال: ركعت ركعتين، وأنت تقصد صليت صلاة ذات ركعتين.

(ج) موازنة بين نوعين من الصلوات:

المتدبر يجد أن ثمة تباينا بين نوعين من الصلوات، الأول: صلوات الدلوك والغسق، والنوع الثاني: صلاة الفجر.

النوع الأول: صلوات الدلوك والغسق

النوع الأول، هو الصلوات التي تقام من دلوك الشمس إلى غسق الليل، فهي مرتبطة زمنيا ببدء زوال الشمس إلى اختفائها تماما، وجاء اللفظ معها بالصلاة (أقم الصلاة)، فكأن هذه الصلوات كلها صلاة واحدة؛ إذ هي ذات خصائص مشتركة.

فقوله (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)، **أي: أقم صلاتك من بدء دلوك الشمس إلى انتهاء غسق الليل، وهذه الصلوات المفروضة، وكلها تشترك في أن الأمر بإقامتها ارتبط بزوال الشمس، فهي تبدأ الزوال ظهراً، ثم يأتي العصر وقد بلغت منتصف الزوال، ثم يأتي المغرب حين تغيب، ولكنها لا زالت تنشر أشعتها في الأفق، وهو أول الغسق، حتى تختفي أشعتها وهو وقت العشاء الآخرة.**

فهذه الصلوات ذات خاصةّ مشتركة، وتحدث في وقت تغيرات شمسية شديدة أثناء اليوم، ولذلك تجدها كلها في وقت متقارب. وهي المرادة بالصلوات في قوله تعالى: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى)، **فهذه الأربع هي الصلوات، والفجر هي الوسطى. وقد أفرد الفجر عنهن في الآيتين. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم - لسفر أو لعذر - يجمع صلوات الدلوك، ويجمع صلوات الغسق. أما الفجر فهي منفردة عنهن.**

النوع الثاني: صلاة الفجر

هناك فروق في حديث القرآن الكريم عن النوعين من الصلوات، وفروق أيضاً في أحكامهما الفقهية، ومن هذه الفروق:

١) الفرق في الاقتران:

اختلف اللفظ مع الفجر، فلم يقل: وصلاة الفجر، أو والفجر، ولكن قال: وقرآن الفجر، فسماه: قرآنا. ثم قال (إن قرآن الفجر كان مشهودا)، فالاقتران ليس بين الصلوات والشمس كما في الصلوات الأوَل، ولكن بين قرآن الفجر وكونه مشهودا. كما بينته سابقاً.

٢) عدد التشهدات:

وحتى إن صلاة الفجر لا تشبه أي صلاة أخرى، فهي ركعتان ذات تشهد واحد، يجهر فيها بالقرآن الكريم، بخلاف بقية الصلوات، فكلها تتألف من تشهدين، التشهد الأول يختم به الجهر في الصلاة الجهرية، والتشهد الثاني يختم به الإسرار فيها. كما أن التشهد الأول يختم به الركعات الطويلة (حيث تقرأ فيها الفاتحة وما تيسر)، والتشهد الثاني يختم به الركعات القصيرة (التي تقرأ فيها الفاتحة فقط).

٣) الجمع والقصر:

وقد شرع الله للمؤمن إذا كان في سفر أو له عذر، أن يجمع بين صلاتي الدلوك (الظهر والعصر)، وصلاتي الغسق: (المغرب والعشاء). أما الفجر فلا قرين لها، تصلى منفردة، لا تجمع مع صلاة، ولا يُقصَر

من ركعاتها، تحف بها صلوات النهار والليل.

٤) وقت الصلوات:

والصلوات الأربع تكون أثناء يقظة الناس، ولهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النوم قبل صلاة العشاء، والسهر بعدها. فكلها صلوات نُشورية معاشية (نسبة إلى كون النهار نشورا ومعاشا)، حتى العشاء مرتبطة بزوال آخر أشعة الشمس. فهذه الصلوات أثناء معاش الناس،

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)،

وقال: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا).

أما صلاة الفجر فتأتي بعد النوم السبات، فتكون خاتمة الليل الذي جعله الله لباسا، وسكنا. والليل لا يكون لباسا إلا بعد غياب الشفق غيابا تاما، فيصبح مثل اللباس الساتر للأرض ولساكني الأرض.

الموازنة بين آيتي الإسراء والبقرة:

وقوله تعالى في سورة البقرة:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)،

هنا ثلاثة أوامر متتالية، الأول: المحافظة على الصلوات، والثاني: المحافظة على الصلاة الوسطى، والثالث: القيام لله قنوتا. وهذه الأوامر الثلاثة تقابل الأوامر الثلاثة في سورة الإسراء:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ)،

فالأول: (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) في سورة الإسراء [ويقابل "الصلوات" في سورة البقرة]،

والثاني: إقامة قرآن الفجر في سورة الإسراء [ويقابل "الصلاة الوسطى" في سورة البقرة].

والثالث: التهجد من الليل نفلا لا فرضا [ويقابل: وقوموا لله قانتين].

وفي آية البقرة كان الأمر موجها للمسلمين، وفي آية الإسراء كان الأمر موجها للرسول صلى الله عليه وسلم.

فانطبقت آية البقرة على آية الإسراء، وفسرتها.

□

(د) ما الصلاة الوسطى؟

ما سبق يبين أن صلاة الفجر تختلف عن بقية الصلوات، وهذا يرجح كونها الصلاة الوسطى.

مع المفسرين:

واختلف المفسرون في أمرين: الأول: تعيين الصلاة الوسطى، والثاني: المقصود بالوسطى.

وجمهور المفسرين على أنها العصر. وقيل الظهر، وقيل المغرب، وقيل العشاء، وقيل الفجر، وهناك عشرون قولاً (انظر: نخب الأفكار لبدر العيني، ٣/٣١٠ — وما بعدها).

وأما المقصود بالوسطى، فقد ذكره البغوي في تفسيره: (وفي المراد بالوسطى ثلاثة أقوال: أحدها: أنها أوسط الصلوات محلا. والثاني: أوسطها مقدارا. والثالث: أفضلها، ووسط الشيء: خيره وأعدله. ومنه قوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا").

مناقشة الأدلة:

واستدل من ذهب إلى أنها صلاة العصر، بالحديث الذي أخرجه الشيخان من حديث علي رضي الله عنه: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»، وأحاديث أخر بهذا المعنى.

غير أن ثمة نقاشات عديدة، فقد أخرج مسلم عن أبي يونس، مولى عائشة، أنه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفا، وقالت:

إذا بلغت هذه الآية فآذني: {حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى} فلما بلغتها آذنتها فأملتْ علي: "{حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وصلاة العصر، وقوموا لله قانتين}"، قالت عائشة: سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري: "وأما حجة الذين قالوا: إنها الصبح، فإن ابن عباس قد استدل على ذلك بأنها تصلى في سواد من الليل وبياض من النهار، وقالوا: وهى أكثر الصلوات تفوت الناس. قال إسماعيل بن إسحاق: ومن الحجة على ذلك قوله: (وقرآن الفجر) [الإسراء: ٧٨] الآية، فخصت بهذا النص وأنها مفردة لا يشاركها فيه غيرها. قال أبو عبد الله بن أبى صفرة: وإنما سمى الرسول العصر وسطى، والله أعلم، شبهها بالصبح لفضلها واجتماع الملائكة فيها في قوله: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر). (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) [الإسراء: ٧٨]، فالصبح وسطى بالكتاب والعصر وسطى بالسنة؛ لأن الصبح مذكورة بالكتاب بشهود الملائكة لها، والعصر مذكورة بذلك في السنة، ألا ترى أن عائشة وحفصة أمرتا أن يكتب لهما في المصحف: (حافظوا على الصلوات، والصلاة الوسطى وصلاة العصر)، فخصتا العصر بالمحافظة مع الوسطى لاشتراكهما في تعاقب الملائكة، ولاشتباههما في أن الصبح يغلب الناس النوم عليها، وأن العصر يغلبون عليها بالكسل والسآمة لما كانوا عليه من اشتغالهم ونظرهم في معاشهم، فتزاحم الشغل والكسل في وقتها، والله أعلم".

قال ابن عبد البر في الاستذكار: (والاختلاف القوي في الصلاة الوسطى إنما هو في هاتين الصلاتين وما روي في الصلاة الوسطى في غير الصبح والعصر ضعيف لا تقوم به حجة). وقال في التمهيد: (وفي حديث عائشة دليل على أن الصلاة الوسطى ليست صلاة العصر لقوله فيه وصلاة العصر وهذه الواو تسمى الواو الفاصلة وحديث عائشة هذا صحيح لا أعلم فيه اختلافا).

الراجح أنها صلاة الفجر:

والراجح لدي ما ذهب إليه ابن عباس أن الصلاة الوسطى هي صلاة الفجر. جاء في تفسير البغوي: أن من ذهب إلى كونها صلاة الفجر هم: عمر، وعلي، وابن عباس، وأبو موسى، ومعاذ، وجابر بن عبد الله، وأبو أمامة، وابن عمر، وزيد بن أسلم، وعكرمة، وجابر بن زيد، وأنس بن مالك، وعطاء، وطاووس، وعبد الله بن شداد، ومجاهد، ومالك، والشافعي.

وسأبين أوجه ترجيح هذا القول، باعتبار القولين في تفسير (الوسطى)، أنها: أوسط الصلوات محلا، وأوسطها فضلا.

أما وسطية المقدار فهو قول لا اعتبار له. وقد ذهب إليه من قال أن الوسطى هي صلاة المغرب، باعتبار عدد ركعاتها الثلاث. ولا دليل على هذا الاعتبار لا من اللغة ولا من استخدام العرب للفظ، ولا من الشرع.

صلاة الفجر أوسط الصلوات محلاً:

يبينه قول ابن عباس الذي رواه الطبري في تفسيره: (عن أبي العالية قال: سألت ابن عباس بالبصرة ها هنا، وإن فخذه لعلى فخذي، فقلت: يا أبا فلان، أرأيتك صلاة الوسطى التي ذكر الله في القرآن، ألا تحدثني أي صلاة هي؟ قال: وذلك حين انصرفوا من صلاة الغداة [أي: الفجر]، فقال: أليس قد صليت المغرب والعشاء الآخرة؟ قال قلت: بلى! قال: ثم صليت هذه؟ قال: ثم تصلي الأولى والعصر؟ قال قلت: بلى! قال: فهي هذه).

فابن عباس يرى أن أول صلاتين هما المغرب والعشاء وآخر صلاتين هما الظهر والعصر، والفجر بينهما.

ويؤيد مذهبه أن المعتبر في الإسلام هو البدء بالليل لا النهار، ولذلك يعتبر دخول الشهر من بعد غروب الشمس حين يرى الناس الهلال. فالشهر يبدأ بليله لا بنهاره، ولذلك تكون أول ليلة في رمضان - مثلا - سابقة لأول نهار فيه. وينتهي الشهر بنهاره لا بليله.

وهذا على تفسير (الوسطى)، بأنها أوسط الصلوات محلا.

صلاة الفجر أوسط الصلوات فضلاً:

والذي يترجح لي أن (الوسطى) باعتبار الفضل، والقرآن الكريم يستخدم هذا اللفظ للتعبير عن الأفضلية والخيار، كما في قوله: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)، أي: أمة مجتباة، وقوله: (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)، أي: أفضلهم وخيرهم.

فالصلاة الوسطى هي أفضل الصلوات، وقد ميزها القرآن الكريم في الذكر في آية البقرة، كما ميزها في آية الإسراء. وقد بينت أوجه فضلها آنفاً.

وإضافة إلى ما ذكرته من اختلافات بين صلاة الفجر من ناحية وبقية الصلوات من ناحية أخرى، ما ذكرته في قوله (إن قرآن الفجر كان مشهودا).

□

(هـ) وقرآن الفجر:

جاء الأمر بإقامة الصلاة (مع عامة الصلوات)، وإقامة قرآن الفجر مع صلاة الفجر. فخالف بين اللفظين: الصلاة، وقرآن. قال ابن عاشور: (وخص ذكر ذلك بصلاة الفجر دون غيرها ؛ لأنها يجهر بالقرآن في جميع ركوعها، ولأن سنتها أن يقرأ بسور من طوال المفصل، فاستماع القرآن للمأمومين أكثر فيها، وقراءته للإمام والفذ أكثر أيضا).

فصلاة الفجر هي قرآن فقط، من حيث إنها جهر بالقرآن في جميع ركوعها، فالقرآن إشارة إلى حالة الجهر، فحالة الجهر هي قرآن الصلاة، وليس هنالك صلاة قرآنا فقط إلا صلاة الفجر. ولما كانت صلاة الفجر قرآنا فقط، كانت بتشهد واحد.

أما بقية الصلوات فهي ذات تشهدين، والتشهد في صلاتي المغرب والعشاء يمثل الانتقال من حالة الجهر إلى حالة الإسرار. أما صلاتا الظهر والعصر فالتشهد فيها انتقال من الطول إلى القصر، (الطول فيها بقراءة الفاتحة وغيرها، والقصر فيها بالاقتصار على الفاتحة)، والفاتحة أم القرآن الكريم، فما من ركعة إلا والأم حاضرة فيها، قد تنفرد وقد يكون معها غيرها من القرآن الكريم.

وقد كان الإسرار في صلاتي الدلوك، والله أعلم بمراده؛ لأن صلاتي الدلوك تكون والشمس شديدة، فالصلاة في هجيرائها، فناسب الإسرار فيها؛ لأن الشمس تحجب بضوئها الكواكب والنجوم الأخرى، فلا نرى إلا الشمس، فهي التي تظهر وحدها. فالمصلي

كذلك يسر بصلاته ولا يظهرها، فالظهور فقط للشمس.

أما في غسق الليل، فالليل قد بدأ، والليل لا ضوء فيه فيغيب الكواكب والأقمار، فكلها تظهر، فناسب الجهر بالصلاة، ولما كانت خيوط الشمس لا زالت في الأفق (الشفق)، فهي حالة مختلطة بين الليل والنهار، فناسب الجهر والإسرار في صلاتي العشاء.

وأما الفجر فتصلى في آخر الليل، فهي صلاة ليلية لا حظّ للشمس فيها، وشروق الشمس بعد صلاة الفجر بأكثر من ساعة. فكانت جهرية. والله أعلم.



□

(و) والفجر:

أقسم الله بالفجر، فقال:

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.

فالفجر وقت مشهود، وهو وقت ذو خصائص تناسب حالة البعث للنفوس بعد وفاتها، قال تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، **فالصباح هو وقت الفجر حتى تشرق الشمس، فهو يتنفس، وتنفسه في وقت بعث النفوس؛ ليمنحها بإذن ربها صلاحية العودة للحياة (بعد وفاتها). فهواء هذا الوقت، وإضاءته، ورياحه، والأرزاق التي تنزل فيه، ... كل ذلك شيء ضروري لإعادة صلاحية النفوس للحياة بعد وفاتها. وسمي الفجر؛ لأنه يشق سكون الليل وظلامه، كما تفجر الأنهار الأرض، أي تشقها شقا، ويرتبط هذا الشق ببعث النفوس وعودة مظاهر الحياة إلى الأرض.**

وهذا القسم يقابله قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، **الغاسق هو الليل في وقت الغسق، أي من غياب الشمس حتى غياب الشفق. وهو وقت الشر، والله أعلم بالشر الذي فيه، وهو يقابل وقت الخير، وهو الوقت المشهود وقت الفجر. وقد جاء في صحيح البخاري ومسلم مرفوعا: (إذا اسْتَجْنَحَ الليل، فَكُفُّوا صبيانَكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم)، وفي رواية: (إذا كان جُنْحُ الليل، أو أمسيتم..)، فهذا وقت الاستعاذة منه، وهذا من الشر الذي فيه، ولاحظ أنه ربطه بأول دخول الليل حتى غياب الشفق (فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم).**

والقسم الذي في سورة الفجر هو قسم بالصلوات،

فقوله (وَالْفَجْرِ)**، وهو الوقت الذي تصلى فيه الفجر، وهو أفضل أوقات اليوم، والصلاة فيه أفضل الصلوات.**

(وَلَيَالٍ عَشْرٍ)**، أي العشر الأواخر من رمضان، وفيهن ليلة القدر، وهي أفضل ليال في السنة، وقيامها أفضل القيام.**

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)**، الشفع هما صلاتا الظهر والعصر، فمجموع ركعاتهما ثمان ركعات، فهي الشفع. والوتر: هما صلاتا المغرب والعشاء، فمجموع ركعاتهما سبع ركعات. فأقسم الله بصلوات دلوك الشمس وغسق الليل.**

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)**، فسريان الليل يبدأ من بعد غَسَقَانه، فالغسقان هو السيلان ويستمر حتى غياب الشفق، ثم يسري الليل حتى الفجر. وفي سريان الليل يصلي المؤمن التهجد** (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً)**.**

فترتيب القسم كما يلي:

أقسم الله بأفضل فريضة في اليوم (الفجر)، وأفضل نافلة في العام. (وليال عشر).

ثم أقسم ببقية الفرائض في اليوم (والشفع والوتر)، وأقسم ببقية ليالي السنة والتهجد فيها (والليل إذا يسر).

فكان الترتيب بحسب الفضل، والله أعلم بمراده.

❖ ❖

فكل ما سبق يبين أن صلاة الفجر ذات مزية خاصة، ومنزلة

عالية، وفضل عظيم، وأنها تنفرد بخصائص كثيرة عن بقية الصلوات. فهي الصلاة التي تكون في الوقت المشهود. وهي الصلاة الوسطى.